مقدمة

تتميز الواقعية عن غيرها من المذاهب الأدبية الكبرى بعدة خصائص جوهرية تجعل دراستها منطلقا لإثارة كثير من المسائل الفكرية والفنية الخصبة ، لا مجرد استعراض مرحلى لفترة معينة من تاريخ النقد الأدبى ، ويهمنا الآن أن نبرز من هذه الخصائص ما يلى :

– أنها من أشد المذاهب الأدبية حيوية وأطولها عمرا ، فإذا تذكرنا أنها قد ولدت فى منتصف القرن الماضى أدركنا أنها عاصرت الرومانتيكية وورثتها ، وشهدت الطبيعية وتجاوزتها ، وتأملت مولد غيرها من المذاهب الموقوتة التى لم تعمر ، دون أن تفقد قدرتها على التجدد والابتعاث وامتصاص ما فى التجارب الأخرى من عناصر صائبة وتجديدات سديدة ، من هنا تعددت وجوه الواقعية وتنوعت أصولها ، واتسمت فى تطورها بالخصوبة ولم تقتصر على دورها فى الماضى وانما امتدت لتحتضن انتاج الغد بما احتوته من نزعة مستقبلية أصيلة .

– وإذا كانت تدين فى نشأتها لظروف تاريخية موضوعية مر بها المجتمع الأوربى فى القرن التاسع عشر ، إلا أنها بما تمخضت عنه من مبادئ جمالية أساسية قد أصبحت ذات صبغة عالمية شاملة ، وهى بذلك تختلف جذريا عن غيرها من المذاهب الأدبية الكبرى ، فالكلاسيكية مثلا قامت على أساس التأويل الأوربى للمبادئ الفلسفية والفنية الاغريقية فى مرحلة محددة من تطور الفكر الغربى فقدت بمرورها مبررات وجودها وأصبحت غير قابلة للاستزراع فى تربة أخرى ، وكذلك الرومانتيكية التى لم تكن سوى تعبير حاد عن تأزم المشكلة الفردية فى ظل الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية لأوربا الغربية فى القرن الماضى ، والرغبة فى التحرر من القيود الكلاسيكية التى كانت قد أرهقت روح الابداع الفنى بشروطها المتعسفة ، وهى ظروف قد نجد مثيلا لها فى سياق التطور التاريخى للشعوب الأخرى ، إلا أنه يظل تشابها جزئيا ومرحليا لا يتجاوز السطح الملموس ولا يتعدى مجرد التقليد فى التشخيص ، وبهذا لا يبقى من الرومانتيكية سوى العدوى والمزاج .

أما الواقعية فإنها اعتمادا على مبدئها الأساسى فى الانعكاس الموضوعى وتمثيل الأدب

للواقع – أيا كان موقعه وزمانه – فإنها تتجاوز جميع الحدود الاقليمية والتاريخية ، ويصبح فى مقدور أى مجتمع اختمرت فيه مبادئها الجمالية أن يرى نفسه فى مرآتها بطريقة صافية مركزة ، وتصبح المجتمعات التى مازال ضميرها القومى فى مرحلة النضج والابتعاث ، والتى تقف مثلنا فى مفترق الطرق تبحث عن جوهر شخصيتها وتستشرف الملامح العامة لمستقبلها وسط التيارات العاتية هى أحوج ما تكون لمواجهة النفس بشجاعة ومعرفة الأمر الواقع بعمق ، والوعى بالعوامل الفعالة لوجودها التاريخى المحدد ، ولن تجد مركبة تمخر بها هذا العباب سوى مبادئ الواقعية .

* * *

– على أن أهم خصائص الواقعية فى تصورى هى قدرتها الفذة على التحول من المذهب إلى المنهج ، فلم تعد مجرد مجموعة من المبادئ المقررة التى مهما بلغت من العمق الموضوعى لا مفر من أن تكون نسبية مرتبطة بظروفها الخاصة ، ولابد أن يأتى اليوم الذى يتعين فيه أن تفسح الطريق لغيرها من المبادئ الجديدة ، وإنما أصبحت منهجا حرا فى الابداع الفنى والأدبى ، لا يقيد من حريته التزامه الدائم بتجسيم الواقع ، إذ أنه لا يفقد لذلك طواعيته ولا مرونة أساليبه ، ولا قدرته على استبصار المستقبل ، فخيوط الواقع لا تتكون فحسب من الماضى الذى يسبق لحظة تاريخية محددة ويصوغها بشكل خاص وإنما من الأجنة التى ما زالت تضطرب فى عالم غيبه وإن لم تكن مرئية بالوضوح الكافى ، وليس معنى هذا أن الواقعية من شأنها أن تقنع بالرؤى الغامضة التى ربما كانت تتمثل فى بعض لمحات التفاؤل الرومانتيكى ، وإنما تتمثل مهمتها الأساسية فى وصف مولد الغد انطلاقا من اليوم وما ينوء به من أحمال تنبئ عن مخاض عظيم وأليم .

* * *

ويبدو أن دراسة الواقعية بطريقة منهجية معمقة لم تظفر فى النقد الأدبى العربى بالعناية التى تستحقها ، بالرغم من كثرة ترديد نقادنا لمصطلح الواقعية إلى درجة الابتذال ، لكنهم قليلا ما أجهدوا أنفسهم فى تحديده بطريقة علمية موضوعية دقيقة ، اعتمادا على أن اطلاق التسمية يحيل إلى مفهوم واضح بين ، وسنرى أن الأمر يختلف عن ذلك . بيد أنه من المناسب أن نشير منذ البداية إلى بعض العوامل التى أدت إلى فقر نقدنا العربى فى هذا المجال مع ثراء أدبنا الابداعى الواقعى – خاصة منذ الأربعينات حتى الآن – ومن هذه العوامل ما هو متداول معروف من أن التنظير النقدى يعقب عادة موجات الابداع

أو يواكبها فى بعض الأحيان ، ولكنه لا يسبقها إلا فى ظروف استثنائية عندما يتصل الأمر بالدعوات المذهبية الكبرى فى مرحلة خلقها وتأسيسها ، ولهذا كان لابد من مرور أدبنا بمرحلة الواقعية وتوفر نماذج مكتملة قوية فيه قبل أن تبرز الحاجة إلى تحديد مبادئها الفلسفية والجمالية ، على أن هذا التحديد لم يصل إليه الفكر الغربى نفسه – مع طول عهده بالواقعية – إلا منذ فترة وجيزة نسبيا على يد بعض عمالقة النقد المعاصرين مثل « لوكاتش » و « فيشر » و « جولدمان » كما سنرى فى ثنايا هذه الدراسة .

أما فى نقدنا العربى فإن الإشارة إلى الواقعية قد اقتصرت على تيارين :

أحدهما : يعرض لها بشكل مبتسر عام ، ويخلط بينها وبين الطبيعية التى تتسم بالتشاؤم وتغرق فى مستنقع السلبيات الآسن وتغفل ما فى الحياة من قدرة على التفوق والشعر .

والثانى : يغرقها فى الحمام الأيديولوجى الماركسى بطريقة مذهبية متعصبة ، متجاهلا انتصار الواقعية النقدية فى الآداب الغربية والعربية على السواء .

ومع ذلك فقد ظل لدى كثير من النقاد – خاصة من الشباب – نوع من الحدس الصائب بأن الواقعية لا يمكن أن تقف عند هذا الحد ، ولا أن تقتصر على هذين التيارين ، غير أن الظروف العصيبة التى مروا بها فى العقدين الأخيرين – خاصة فى مصر – قد فرضت على كثير منهم عزلة حجبت عنهم امكانية استشراف هذه الآفاق الرحبة .

* * *

لذلك فإننى عندما أقدم هذه الدراسة التى يبدو فى الظاهر أنها قد جاءت متأخرة عن موعدها ، أدرك بعمق صعوبة المهمة التى أتصدى لها ، وحساسية الأرض التى أخطو فوقها ، وحسبى أنها مجرد محاولة للاستكشاف والتبصر ، لا تتعصب لما تعرض ، ولا تنكر أن الكلمة الأخيرة فى أى شىء هى دائما تلك التى لم ينطقها أحد بعد ، ولا يغيب عنها أن أهم ما ينبغى أن تتوخاه وتحرص عليه إنما هو الروح النقدى الأمين .

دكتور صلاح فضل